



مشروع بحث حول

الروابط الاجتماعية على محك السياحة الصحراوية
في تونس

نموذج مدينة دوز الصحراوية

نور الدين العلوي

برنامج بحوث الشرق الأوسط للعلوم الاجتماعية
مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية

23 نهج أسبانيا - تونس

الهاتف : 0021671322994

الفاكس: 0021671326770

البريد الإلكتروني: merc@ceres.rnrt.tn

الروابط الاجتماعية على محك السياحة الصحراوية

دراسة في متغيرات الزواج السياحي و الثقافة .

حالة مدينة دوز الصحراوية بالجنوب التونسي

المدخل أو إشكالية البحث؟

ما هو تأثير استزراع السياحة الصحراوية في مناطق الجنوب التونسي على بنية العلاقات الاجتماعية وكيف تعيد تشكيل الروابط ذات الصلة بالأسرة و البنى الاجتماعية التقليدية القائمة داخل البيئة البدوية /الصحراوية ذات الثقافة التي تتسم بالثبات والقدم والتماسك ؟ كيف يتجلى هذا التأثير في الوقت الراهن ؟ وما هي آفاق تطوره ؟ هذا هو السؤال المركزي لهذه المحاولة البحثية والذي نختار له منطقة دوز من ولاية قبلي بحثا له عن إجابة لعلها تكون ضافية .

لقد اهتم البحث العلمي في تونس بالسياحة الصحراوية بشكل متأخر بعض الشيء عن السياحة البحرية أو الشاطئية التي تناولها البحث العلمي منذ فترة خاصة وأنها حظيت بأولوية في البرامج التنموية منذ بداية السبعينات بالتزامن مع التحول نحو اقتصاد السوق بعد تجربة التعاوض التي لم تول السياحة كمنشأ اقتصادي أولوية تذكر . وجاء الاهتمام بالسياحة الصحراوية في الثمانيات بالخصوص كتكملة أو أفق اضافي أو بمثابة

اكتشاف لمنتج جديد قابل للتسويق لدي السائح الغربي بالأساس وهو الذي يجهل الصحراء وسكانها¹. وقد وضعت للسياحة الصحراوية في تونس قواعد متينة من نزل و طرقات (بنية تحتية) وثقافة تجارية (تسويقية) بما يمكن أأا يعمل إلا على تطويرها والاستفادة منها اقتصاديا وهو أمر ليس مثار جدل أو اعتراض في هذا البحث .

ان الملاحظة التي دفعت إلى اقتراح هذا المشروع البحثي هي التغيرات التي مست وتمس الآن الروابط الاجتماعية و الثقافية منذ تركيز (استزراع/implantation) السياحة الصحراوية في منطقة مثل منطقة دوز، وهي تغيرات تسهل مراقبتها في اتجاهات السلوك الفردي والجمعي لسكان المنطقة . كما يمكن تعميم (quantification) بعض مظاهرها وتعبيراتها.

¹يعتمد السائح الغربي عادة في معرفته للصحراء على أدب الرحلات الأوروبي الذي يميل إلى المبالغة في وصف الغريب من البيئة والناس أو في أحسن الحالات يعتمد على التقارير العسكرية لضباط اقل معرفة مما ينبغي ولا تحيد كتابتهم عن البحث عن المسائل ذات العلاقة بمهامهم العسكرية الهادفة إلى إخضاع السكان . وكان لسبق مصر والمغرب في بعث السياحة الصحراوية دور كبير في اكتشاف الصحراء كمنج سياحي في تونس كما كان لرحلات "السفاري" الإفريقية دور في ذلك.

ويمكن القول ان السياحة الصحراوية قدمت منذ التجارب الأولى في هذه البلدان كمنتج غريب ومثير للاستغراب وربط بصور الشرق التقليدية التي روجها الاستشراق الأوروبي في نهاية القرن التاسع عشر والتي توصلت بعد ذلك وصورة الشرقي فيها (العربي الصحراوي خاصة) مركبة من قسمين : صورة الجلف القوي الذي لا يشبع ولا يرهق من الجنس (المتوحش في الفراش) .

صورة الفارس الرومانسي العاشق الذي يمكن ان يخطف حبيبته على جمل ابيض (لا فرق بين العربي والتارقي هنا) . وهما صورتان غير واقعتان وفيهما الكثير من المبالغة التي تقوم السياحة الصحراوية الآن بالترويج لها بمجال دعاية وإغراء للسائحات خاصة الباحثات عن الجنس الغريب والشبق .

وهناك أدبيات كثيرة في هذا المجال لا بد للبحث ان يعيد تركيب الصورة من خلالها لضرورة فهم آليات اشتغال السياحة الصحراوية ولما هي مصدر تأثير على الرابط الاجتماعي من خلال كسر الرابط الثقافي (رابط الهوية) .

من هنا مأتى السؤال الذي يود هذا البحث الإجابة عليه: هو ما التأثير الذي أفرزته تجربة نقل السياحة إلى الصحراء على الروابط الاجتماعية و الثقافة المحلية اذ لوحظ في مستويات مختلفة ان هناك ردات فعل لا معيارية (انومية) اغترابية أو متفشية بين الناس تظهر بشكل مستمر في إقبال الناس على سلوكيات تبدو جديدة وغريبة عن السائد والمألوف منها إقبال البعض على وضع حد لحياته و منها المسارعة والتنافس من قبل الشبان على الزواج من أجنبيات سائحات دون البحث في مدى تلاؤم ذلك مع وجودهم في بيئة عربية مسلمة صحراوية و بدوية. ويتم التركيز على القيمة المادية المحتملة لهذه الزيجات (الهجرة بما هي نجاة من سجن القرية والأسرة والغنيمة المادية بما هي نجاة من فقر مدقع ودائم وغير قابل للعلاج بوسائل محلية كالعامل في الواحة لإنتاج التمور) .

وهو ما يجعلنا نطرح في هذا البحث السؤال المتعلق بهذا الإقبال على ما يمكن تسميته بالزواج السياحي؟ وهل هو تفاعل واع من قبل السكان المحليين أم إننا بصدد مشاهدة عملية حرق للرباط الاجتماعي التقليدي وتجاوزه مماثلة لحرق الحدود الجغرافية والسياسية التي يقوم بها فئات أخرى من الشباب المهاجر عبر البحر. ما هي الآثار الجانبية لذلك (على الأسرة والبناء الاجتماعي التقليدي والهوية المحلية المنتجة لأسباب البقاء) أي على الروابط الاجتماعية في مجملها أم ان الأمر يتم بدون خسائر جانبية و ليس له الا الفائدة المادية "الطاهرة" أو هو ضريبة (صفقة) تنمية جراحية خالية من الآثار الجانبية؟ ما مدى التثاقف الإرادي(الطوعي) للسكان وما عمق التغيير القسري للثقافة السائدة؟

كما لا يسعنا الا نطرح في مدخل البحث السؤال عن كيفية التحقق مما سميناه الآثار الجانبية على الرابط الاجتماعي وإنتاج اللامعيارية الاجتماعية للزواج السياحي² أي ما هي الوسائل البحثية المتاحة لسبر عمق الأثر الاجتماعي والنفسي ثم الثقافي الذي تركته السياحة الصحراوية وتتركه راهنا في واقع المنطقة التي نقترح سبرها وهي منطقة دوز .

² يحتاج الزواج السياحي إلى تعريف أكثر دقة ما نفع في مشروع البحث المقدم الآن وذلك لأنه لم يسبق ان وضع على نطاق البحث بشكل دقيق فقد تم إجراء دراسات عن الزواج بالأجنبيات بما في ذلك غير الغربيات ولكن الربط بين الزواج من الأجنبية والسياحة أمر لم تسبق دراسته وهو زواج مختلف عن بقية أشكال ومرتكزات الزواج فهو عادة خارج المؤسسة الاجتماعية فلا يتم إشهارة طبق للشروط الدينية والاجتماعية السارية كما انه في بعض الأحيان غير مؤسسي اذ لا يتم تسجيله في الحالة المدنية الا لضرورة استيفاء إجراءات الهجرة (كما تشترط ذلك بلدان الزوجات الغربيات لحمايتهن من التلاعب كما للحد من الهجرة عبر الاعتماد على الزوجة) وهو لا يلغي مؤسسة الزواج التقليدية اذ يعود المتزوج عادة ليتم زواجه الاجتماعي في تونس من فتاة تونسية بأموال تكون عادة مدبرة من الزوجة الغربية أو من العمل الذي حصل عليه عبر الزواج منها. وتجدر الإشارة إلى ان هذا الزواج محاط بهالة من الإبهار أو التخفي عند الشباب المقبلين عليه بحسب عمر الزوجة وقدراتها المالية فهي تسمى الأوراق أو الفيزا إذا كانت متقدمة في السن أو هي إقامة و عمل أو (4×4) إذا كانت صغيرة السن أو مقبولة بعد كما يزدهر الحديث الشبقي بين أوساط الشباب حول هذه الزيجات تحت تأثير الحرمان الجنسي كما ينتشر أيضا حديث سلبي و تحقيري في أوساط من لم يفلح في عقد مثل هذه الزيجات الصفقات. باعتبار ان الشاب المتزوج ما هو الا وسيلة متعة جنسية سترمي بعد الاستنزاف .

1. الأهداف الرئيسية للبحث :

يهدف هذا البحث إلى :

معرفة الآثار المباشرة وغير المباشرة على البناء الاجتماعي للسكان المحليين التي أنتجتها عملية توسيع السياحة في الصحراء التونسية من خلال دراسة تأثيرها على سكان منطقة دوز التونسية التي تتميز بأنها موطن قبيلة عربية ذات أصول صوفية دينية حددت منذ القديم إقامتها على مشارف الصحراء وحددت لها نمط عيش بدوي يقوم على تربية الحيوان³. والى ذلك محاولة توقع عمق هذه الآثار على مستقبل الثقافة الصحراوية كمكون من ضمن مكونات الثقافة التونسية منذ تعريبها .

2. المجال (الإطار) النظري للبحث :

نعتقد على أبواب البحث ان الدراسات المتراكمة حول السياحة في تونس قد ركزت على البعد التنموي المادي وأغفلت أو قصرت في سبر عمق التأثير الاجتماعي و الثقافي خاصة في المناطق ذات الثقافة المتماسكة أو الأصيلة كالقبيلة العربية الصحراوية ، وهو

³ وتعمل السياحة الصحراوية الآن على الأبعاد الثقافية للزواج السياحي أي العمل في مستوى السياسات الثقافية والتنموية على إبقاء المجتمع الصحراوي في دور المورد الطبيعي الخام / المورد الإيروسي، من أجل استكمال حلقات المسالك السياحية بقطع النظر عن الثمن الإنساني والنفسي والتنموي المستدام. ويقطع النظر عن الآثار المباشرة والجانبية على الروابط الاجتماعية للسكان المحليين وما إذا كان لقبولهم أو رفضهم رأي يمكن ان يؤخذ بعين الاعتبار عند التخطيط والدعم التنموي . وهذا الوضع يحول المجتمعات المحلية إلى مخزون طبيعي (غير منتج للثقافة) ولا للتنمية . واليه يتم إفراغ المناطق الصحراوية من السكان وخصوصا الشباب منهم ، وليس امام لبحث الا معاينة آثار ذلك على التنمية المستديمة (نتيجة التصحر المتواصل في الأرض والبشر).

ما يمكن ان نضيف فيه بعض الإضافة⁴. و لكن يمكن وضع هذا البحث ضمن أكثر من سياق مما هو مقترح من البرنامج فهو على علاقة بمجالات الحياة العامة حيث يمس تطور أشكال الحياة وقياس تحسن مستوى المشاركة فيها لمختلف الفئات الاجتماعية . كما يمس موضوع التنمية: اذ يتناول البعد الثقافي لعملية تنمية يتم الرهان عليها بقوة هي السياحة والسياحة الصحراوية كفرع هام منها . كما انه ليس بمعزل عن القضايا الاجتماعية بما في ذلك الأبحاث في مجال النوع الاجتماعي و الأسرة و الشيوخ و الطفولة وعلاقات العمل.

ولكن ما نورد التركيز عليه في هذا العمل هو البحث في ما يتعرض له الرابط (الروابط) الاجتماعي(ة) (Le(s) lien(s) social(aux)) من اهتزاز وكسر وإعادة بناء على أسس مختلفة نتيجة تأثير المستزرع (L'implant) الجديد الذي ليس الا السياحة الصحراوية ونعتمد في دراسة الرابط الاجتماعي على المقولات الدوركهايمية التي تؤكد على انكسار أشكال التضامن الاجتماعي السائدة نتيجة نشأة ظواهر مستجدة تؤدي إلى خلخلة البناء الاجتماعي القائم ونقض ثوابته . و نتحقق من انكسارات الرباط الاجتماعي في هذا البحث عبر ثلاث مجالات متعاضدة هي :

- الإقبال على الزواج بالأجنبيات الذي يؤدي إلى تجاوز الأسرة كمكان هوية ولقاء بالاجتماعي(التنشئة) عبر الزواج .

⁴ أن علم اجتماع الثقافة يمكن ان إطارا نظريا لهذا البحث لكن يوعي مسبق لا يعزله عن علم اجتماع التنمية ويستعان عليه بعلم اجتماع النوع الاجتماعي .

• الإقبال على الانتحار بين فئات مختلفة من السكان دون سابق تقليد في ذلك داخل المنطقة ولقد كان وضع حد للحياة دليلا على حالة انفصام الرابط الاجتماعي وليس مثل دوركهايم للتدليل على ذلك .

• الإغراق في الثقافة التقليدية الشفوية خاصة (الشعر) وتبني كل أشكال الحياة العصرية (المعمار) بما يشكل عملية استعادة للهوية التقليدية في القول ومناقضتها في الواقع اليومي و نعتقد ان هذا احد أهم مظهرات اللامعيارية ,

أما الوسائل التقنية فان المعاشة الميدانية هي السبيل الأنجع لدراسة مثل هذه المواضيع اذ يتعلق الأمر بدراسة تتجه إلى معرفة الآراء الفردية ضمن ثقافة جمعية ولان المعلومات المطلوبة هي معلومات نوعية فان البحث الكمي يصير اقل قدرة على الدلالة على ذلك الا فيما يتعلق بدراسة حالات الزواج بالأجنبيات اذ يمكن إجراء استبيانات ميدانية وأخرى معمقة طبقا لما يسمح به البحث للوصول إلى التثبت من صحة الفرضية البحثية القائمة .

غير أننا نتوقع بعض الصعوبات الميدانية التي تنبع من المنطقة نفسها اذ ان التصريح القانوني بإجراء البحث غير كاف للحصول على الترخيص خاصة فيما يمكن ان يتجه إلى المساس بالتشكيك في خيار تنموي أو كشف عوراته.

أو التساؤل عن أسباب انتحار بعض الأفراد مهما قل عددهم . رغم ما نعتقد من أهمية مثل هذه الأبحاث في توجيه سياسات التخطيط والتنمية التي سيكون البحث تحت طلبها لو أرادت الاستفادة منه. اذ ان المزمع نشر البحث بعد اكتماله ولا تحضرنا هنا خطة لذلك ولكن لكل حادث حديث .

3. خلفية اختيار موطن البحث أو لماذا دوز عينة للبحث دون غيرها ؟

تتميز دوز من ضمن مناطق الصحراء التونسية وعلى خلاف بقية الواحات بأنها موطن قبيلة واحدة هي قبيلة المرازيق (تنقسم إلى عدة أفخاذ). ففي بقية الواحات مثل قابس وجوارها نجد أن سكان الواحات ينتمون إلى قبائل لها أسماء معروفة وتاريخ قبلي (ثقافة قبلية) تعزز به غير أنها ليست قبائل صحراوية وإن كان بعضها يترحل إلى حدود زمنية قريبة (بني يزيد حول واحة الحامة) ولذلك فانه لم يكن ممكنا أو مجديا أن تغرس فيها السياحة الصحراوية لأنها غير قادرة على تقديم هذا المنتج الا كمحطة في طريق السياحة الصحراوية يمكن التخلي عنها ويتم التخلي عن ذلك فعلا بعد شق طريق الظاهر بين مطماطة (المطار الجديد) وبين دوز جنوبي جبال طباقة والتي كانت مفازة معطشة .

كما تختلف عن منطقة الجريد التاريخية (الجنوب الغربي التونسي) التي عرفت استقرارا قديما للسكان يكتفي باقتصاد الواحة ثم المناجم المجاورة بعد ظهورها في نهاية القرن التاسع عشر .ولا يعرف عنه الترحل أو التعيش من الصحراء على غرار القبائل الصحراوية كما لا تعرف عنه الثقافة القبلية(التي تحتاج منا إلى تعريف أوسع من هذا).

إن هذا التمييز القبلي(الثقافة الممثلة أو الدالة) هو الذي سيعمل كخلفية للبحث الذي نقترحه هنا.

وفي تعريف أولي مختزل نقول أن ما نضعه داخل الثقافة القبيلة الصحراوية هو الإرث الثقافي العربي الإسلامي الذي انتشر بين القبائل العربية منذ مجيء الإسلام وأسس على مكارم الأخلاق القبيلة السابقة له (الجاهلية) التي ورثها ودعمها (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق : حديث نبوي) وسارت به ركبان القبائل العربية في هجراتها المختلفة عبر المناطق التي اجتاحتها أو استوطنتها بما في ذلك مناطق الشمال الإفريقي التي تقع منطقة الجنوب التونسي ضمنها بالضرورة .

بم تتميز هذه الثقافة ؟

(كان) النظام الاجتماعي يقوم في القبيلة (المرزوق ، دوز) على اقتصاد كفاية ينزع إلى الزهد (الرضا بالمقسوم)باعتبار كل كسب يورث النهم الذي يورث الجشع الذي ينحط بأخلاق الإنسان فكل جشع مدان لأنه مضاد للزهد في الدنيا التي هي جنة غير المؤمنين بالقيامة .وعليه فإن كل مسارعة للكسب كالاشتغال الدائم بالتجارة أو بالتداول في البنيان هو مفسدة لأنها تقتضي الاستقرار الذي يقتضي الانقطاع عن الحركة والانقطاع يورث الملل الذي يورث الخمول الذي يفسد الخلق .

كما تتميز الثقافة لدى هذه البيئة بنظام أخلاقي صارم يقوم على الفصل الأخلاقي والجسدي بين الجنسين ويدين الاختلاط خارج مؤسسة الزواج الديني ويعلي مؤسسة القرابة الدموية و الولاء للأسرة والعشيرة أو العصبية إذا وسعنا إلى التعريف الخلدوني.

يربط هذا النظام بين القيم السالفة وبين شرط العيش في الصحراء والترحل وراء السوائم (الأنعام) باعتباره الشرط الضامن لسلامة هذه القيم التي تموت في المدن والمستقرات العمرانية (حيث يظهر ساكن دوز بعد تفوقا أخلاقيا طهوريا على ساكن قبلي المدينة المستقر وغير المنحدر من قبيلة حيث يذكر أحيانا بأصله المتحدر من العبيد).

ونعتبر ثقافة الصحراء في هذا النموذج ثقافة قديمة مستقرة (ثابتة) منذ زمن ومطمئنة إلى تكاملها الداخلي (أو مستسلمة أو مكتفية بما لديها ولا تبحث عن مثير خارجي للتطور بصفقتها نسقا أو بناء كاملا) لهذه الأسباب نعتقد ان دوز هي المكان الأدل (النموذج المثالي) لدراسة تأثير السياحة على الثقافة .ومما يزيد في استقرار هذه الثقافة وقوتها ان منطقة دوز عرفت تاريخيا بأنها منطقة /زاوية تزار فمؤسسوها أولياء صالحون اشتهروا بتدينهم الظاهر وقد انتشر بينهم التعليم الديني وتقاليد تحفيظ القران لأبنائهم ولغير أبنائهم خاصة في زوايا معروفة منها زاوية الغوث بدوز وزاوية سيدي عمران بنويل من ضواحي دوز التي تحتفظ بالتقليد الديني بعد. (تجاور الزوايا والقبيلة لم يمنع القبيلة من الترحل الدائم والاستقرار المؤقت في فصل الصيف حول الزاوية وانتظار موسم التمور).

أما السياحة التي تأتي بالأساس بسائح غربي أوروبي (وأحيانا أقل آسيوي ياباني) يحمل ثقافة مختلفة كليا في كل المناحي (الملبس والمأكل والسلوك اليومي بما يحمله ذلك من نظرة متكاملة ومختلفة للأشياء والناس) فهي من وجهة نظرنا سياحة حاملة لثقافتها الكاملة والتي لا يمكن التخلي عنها خارج المكان/ المزار، بل يجد المكان و الناس أنفسهم في حالة تفاعل (احتكاك /تصادم /قبول /رفض) لهذه الثقافة مما يولد

حالة من "التثاقف بالقوة " يؤدي إلى زعزعة أسس الثقافة التقليدية القبلية المستقرة
المكتفية بذاتها ويفرض عليها نماذج جديدة ومطالب جديدة لدى فئات الأعمار المختلفة
ولدى الفئات الاجتماعية المتباينة القرب من التعامل مع المنتج أو السلعة الجديدة .

هذا التثاقف هو مدار البحث الذي نريد . و نجتنب هنا بوعي البحث في التأثير
الاقتصادي المباشر لا لأنه غير مهم لهذا البحث ولكن أهميته تأتي لاحقة لما نريد سبره
خاصة وأنا نعتقد ان التأثير الاقتصادي ما هو الا الوجه الظاهر والعلمي والمقصود
رسميا من قبل غرس أو زرع السياحة في الصحراء فالغاية المعلنة دائما هي غاية
تنموية تعلي مبادئ النجاعة الاقتصادية التي تعبر عن نفسها من خلال الفائدة المجتناة
من استقبال السياح في مكان مؤهلاته الأبرز هي لتقديم الغريب الثقافي (L'exotique)
حيث يتحول عدد الليالي المقضاة وعدد الوحدات السياحية (تطور عدد النزول والأسرة)
إلى مقياس نجاعة ومنفعة ونجاح اقتصادي بالأساس .

لا بد لهذا البحث ان يلم بالفائدة الاقتصادية (المؤشرات الكمية) التي جلبتها السياحة
الصحراوية إلى المنطقة لا لان هذا هو الهدف بل باعتبار ذلك مؤشرا على تنامي
المؤثرات الثقافية الخارجية على الثقافة المحلية .

ستكون هذه المعطيات ضرورية للبحث كخلفية تحليل لا كهدف للبحث وهي معطيات
متوفرة في اعتقادي لدى الجهة الرسمية التي تقيم المردود المادي لهذا الفرع من
السياحة ويمكن الوصول إليها بسهولة .

1. الحقول البحثية الدالة على اهتزاز الرابط الاجتماعي .

ما هي المجالات البحثية التي تمكن من الدخول إلى عمق التحولات الاجتماعية التي نفترض وجودها بعد انتشار وتمكن السياحة الصحراوية بالمنطقة ؟

سبقت الإشارة إلى ان ليس هناك حقل واحد ووحيد يمكن البحث فيه أو سبره لان الأمر يتعلق بالأساس بتغير يمس اتجاهات السلوك الفردي والجماعي .فاتجاهات تغير السلوك من الشمول بحيث يمكن اتخاذ كثير من المؤشرات للوصول إليها .و تتجمع لدينا مؤقتا وقبل الشروع في البحث مؤشرات كمية و نوعية حول مؤشرين دالين من سلوك أبناء المنطقة من مختلف الأعمار والمواقف يمكن اتخاذها دلائل على التغير الاجتماعي المطلوب ويمكن أن تسهل الوصول إلى تحليل تأثيرات ظاهرة السياحة الصحراوية على الثقافة الاجتماعية (البناء الاجتماعي) للمنطقة /العينة .

المؤشر الأول : هو انتشار ظاهرة الزواج بالأجنبيات من النساء لدى أبناء المنطقة .

المؤشر الثاني : هو تطور عدد الأشخاص الذين أقدموا على وضع حد لحياتهم بالشنق أو بتناول الأدوية القاتلة خلال فترة زمنية محدودة (التسعينات خاصة) .

بخصوص الزواج بالأجنبيات (المؤشر الأول):

وهو مؤشر ينقسم إلى فرعي بحث :

الفرع الأول : الزواج بشكل كامل (دائم أو مؤقت) بأجنبية و يمكن ان نجمَّ عدد حالات الزواج من أجنبيات من مختلف الجنسيات الغربية (من اليابان إلى البرازيل) أقدم

عليها أبناء المنطقة (المدينة وما جاورها) منذ بداية الثمانيات وهي مؤشرات آخذة في الازدياد سنويا ويمكن تبيانها برسوم دالة في الزمن .وقد أنتجت بتزايدها حالة من الإقبال المستمر بين الشباب في سن الزواج تصيد الفرص للزواج بأجنبية مهما كان عمرها وخلقت رأيا عاما بينهم مفاده ان مثل هذا الزواج هو الصفقة المربحة على المديين القصير والبعيد والناجح هو من يتدبر مثل هذا الزواج .

خاصة بعد ان ظهرت للعيان النتائج المادية الخارقة بمقياس أبناء المنطقة المتمثلة في بناء مساكن مرفهة (أكثر من طابق في مسكن أو فيلا مكتملة الشروط) واقتناء أو العودة بسيارات مرتفعة الثمن (عادة تكون رباعية الدفع) بعد الزواج والهجرة إلى الغرب مع الزوجة. والتظاهر في أثناء ذلك بمظاهر النعيم والبجوحة المادية (التي تتراوح بين لبس النظارات الشمسية الغالية إلى اقتناء الواحات المغروسة بنخيل الدقلة).

والبحث لا يقف من هذا السلوك موقف الإدانة الأخلاقية أو التعبير الديني بل يسعى إلى معرفة العمق الثقافي الذي ينبني عليه، طارحا أسئلة من قبيل .

كيف تم التنازل السريع من قبل الشباب (العربي المسلم القبلي) عن فكرة وسلوك الزواج من بنت العم (القبيلة) والتي وحتى عهد قريب كان يمكن أو يجب أحيانا ان تفتك من الجحفة (موكب الزواج) إذا تزوجها البراني .

كيف تقوم المبررات الأخلاقية لمثل هذا السلوك والحال أن الديني والقبلي كانا يتكاملان في الحفاظ على نقاوة (طهارة) الدم من التلوث بالعرق الأجنبي .

ما هي مكونات الشخصية الحالية والمستقبلية للشباب المتزوج من أجنبيات ؟ هل هو ذكي و مدبر و غانم وسعيد بمكسبه أم مغترب يقبل بما يتاح ليستمر في الاستزاق بفحولته القابلة للنفاز؟

ما هي النظرة التي تتكون حول العربي العفيف الشريف سابقا الذي يستزق بفحوله راهنا هل هو مدان أم محسود ؟ ولماذا هو كذلك ؟ وماذا بعد استنفاز الفحولة من مصير؟

إن مثل هذه الأسئلة تمهد إلى السؤال الأكبر عن مصير القبيلة النقية العرق و عما تبقى بعد من ثقافتها العربية الإسلامية التي طالما عملت كعنصر لاجم لعناصرها أو عصبيتها . لقد طرحت أسئلة كثيرة ووضعت إجابات أكثر حول مصير القبيلة وتحللها في سياق تطور جهاز الدولة الإداري والمادي فالدولة التي وحدت الإدارة والتعليم والسوق أنهت الحدود القبلية القديمة وجعلت من السهولة القبول بكل أشكال الولاء للجهاز الدولي لكن تفكيك القبيلة ثقافيا بما يجعلها تتسامح وتقبل وترحب بعرق مخالف وبتقافة مغايرة لا يزال في تقديري لم يبحث بما فيه الكفاية وهذا البحث يطمح إلى المساهمة في ذلك .

كيف يمكن الاستفادة من المعطيات الكمية المتوفرة حول هذا المؤشر .

أولا : يمكن الوصول إلى هذه المعطيات عبر دفاتر الحالة المدنية في المنطقة خاصة، وبالتالي فان تجميعها يقتضي البحث الكمي الميداني على عين المكان.

ثانيا: يمكن طرق أبواب الأسر التي لديها كنة أجنبية أو أكثر ومعرفة طرق التعارف ثم طرق التعايش والمشكلات الثقافية المترتبة عن هذه الزيجات أو غياب المشاكل الثقافية المترتبة عنها (هناك مؤشرات على نجاح اجتماعي يبدو غريبا ومشجعا في نفس الوقت

على تطوير الظاهرة) . وهذا البحث يقتضي الاستجواب المعمق والمعاشية الميدانية قدر الإمكان (الاستكشاف الأولى الذي بدأناه قبل تقديم هذا المشروع لا يوحي برفض مبدئي للحديث عن التجربة) بما قد يسهل دراسة الحالة المبنية على المعاشية والاستجواب المعمق كوسيلة بحث .

كما يمكن التقاط مؤشرات كمية مدعمة لذلك من خلال عدد المساكن المبنية وعدد المقتنيات المادية ونوعها نتيجة هذه الزيجات ومقارنة الحالة المادية للأسرة قبل الزواج وبعده . وهو مؤشر لا يقصد لذاته بل لتأثيره الثقافي على الأسرة فيما يتعلق بتسامحها مع الابن الضال/ العائد بغنيمة .

والحصول على هذه المعطيات بدوره يقتضي المكوث المطول بالمكان .

الفرع الثاني : هو نصف الزوجة أو الشطر ، و هو تفرع مهم لهذا النشاط الاجتماعي يبدو بدوره قوي الدلالة هو ما يسمى في عرف المنطقة بنصف الزوجة أو "الشطير" وهو تقليد ينتشر بحسب الاستقصاء الأولي في قرية القلعة المجارة لدوز يتمثل في تطبيق الزوجة التي تكون قريبة عادة والزواج بصفة مؤقتة أو معايشة أجنبية (خارج الزواج) والحصول منها على مبالغ مالية تكفي لإعالة الأسرة المقيمة بتونس وعند العودة إلى أرض الوطن في عطلة تتم إعادة العقد على الزوجة ابنة العم عقدا صوريا أو شرعيا لتحليل الإقامة معها ريثما تتم العودة إلى الخلية أو الزوجة الغربية بمقرها الغربي .

لا تزال المعطيات حول هذا الأمر قليلة بين أيدينا ولكن "البحث يثمر " وإذا أمكن جمع معطيات كمية ذات دلالة حول هذا النقطة بالذات فان أسئلة كثيرة حول العلاقة بالدين والأسرة والوطن لا بد ان تطرح . ولن تكون الا أسئلة ثقافية محضة .

المؤشر الثاني : تعدد حالات الانتحار :

تتجمع لدينا قبل البحث معطيات كمية أولية عن عدد حالات الانتحار بمدينة دوز فاقت الثلاثين حالة خلال عشر سنوات ، بعضها بمدينة سوق الأحد غير السياحية بل الفلاحية بامتياز (بها عدد من المهاجرين إلى الغرب وخاصة فرنسا يفوق المعدل الوطني) كما أن عددا من المنتحرين سجل بمدينة قبلي التي تقع في طريق المنطقة السياحية لكن الغالب من الحالات سجل بمدينة دوز . ولا يجمع بين هذه الحالات جامع من العمر أو الجنس أو المهنة أو المنحدر الأسري فهناك شيوخ انتحروا وهناك تلاميذ في مقتبل العمر كما ان هناك نساء انتحرن وان كان الغالب من المنتحرين ذكورا وهو ما لا يسهل الوصول إلى أسباب موحدة للانتحار تمكن من تحليل الظاهرة . غير أن المقارنة (غير المدعومة كميًا بعد) بين عدد الحالات في مناطق مختلفة خاصة باعتماد الإحصائيات الرسمية تبين ان العدد مقارنة بعدد السكان يمكن ان يدل على حالة من الإقبال على الانتحار تعتبر مرتفعة . وهذا المؤشر منظورا إليه من وجهة نظر ثقافية يعد بتقديم أدلة على حالات من اللامعيارية المتفشية في أوساط السكان المحليين . وفي وسط ثقافي يحرم قتل النفس لأسباب دينية تبدو اللامعيارية وسيلة للتحليل .

هل لانتشار السياحة في المنطقة علاقة بذلك ؟ مازال هذا السؤال في مرحلة افتراضية خاصة وان المنطقة لم تعرف قبل ذلك مثل هذه الظاهرة .

كيف يمكن الوصول إلى المعطيات الكمية المتعلقة بالانتحار ؟

توجد هنا صعوبة تقنية كبيرة لان الأمر يتعلق بالأساس بمسألة أمنية بامتياز فالإحصائيات موجودة بسجل الوفيات بالولاية (رغم انه يؤشر عادة إلى سبب الوفاة بالقول: موت طبيعي في إشارة قانونية إلى غياب الجريمة) لكن الوصول إليها ليس متاحا للأسباب الأمنية إياها.وهو ما يبدو الجانب الأشق من تحقيق هذا البحث. ويجب عدم استبعاد طرق غير رسمية للحصول على المعطيات، التي تبدو لنا على غاية من الأهمية في تحقيق هذا البحث .

هل ينتحر الأفراد بدوز نتيجة عدم القبول بما يظهر من ممارسات السياح التي تصدم ثقافتهم والعجز عن التصدي لها ؟

هل ينتحر الأفراد نتيجة الفقر المادي والإحساس بالعجز إزاء الغنائم التي يجنيها المتزوجون بأجنبيات ؟

هل ينتحر الأفراد نتيجة انهيار بناء الأسرة التقليدي الذي كان يعمل كوعاء للهوية ذات المنشئ الديني القبلي الأسري تحت تأثير السياحة .

هل ينتحر الأفراد نتيجة الالتهام بقضايا أوسع من مدينة دوز ومشاغلتها اليومية (كالحرب في فلسطين والعراق).

تبدو لنا هذه الأسئلة مشروعة بعد ولا مناص منها لمن يبحث في ربط ارتفاع مؤشرات الانتحار بعامل ثقافي خارجي .

ولا يكتفي هذا البحث بالبحث في المؤشرات الكمية وحدها بل يسعى إلى الاستعانة بما يمكن اعتباره وسائل بحث إضافية منها :

4. المؤشر الثالث: النواح الثقافي أو المدونة القولية ما بعد السياحة.

تحتفظ المنطقة بعد بإحدى ميزاتها البارزة وهي قول الشعر العامي والفصيح بشكل يكاد يكون فرديا ولكن ما هي الأغراض الجديدة المتداولة في الشعر ما بعد دخول السياحة ؟ و نجد الآن إيغال الشعراء المحليين (فحولا ومبتدئين) في وصف الصحراء والتباكي على نمط ثقافتها التقليدية (الخيمة والجمال والرحلة والربيع في البادية) حيث يضم ديوان الشعر المرزوقي الحديث (وهو في غاية الاتساع) خاصة الدارج منه مساحة قولية واسعة جدا تقوم على مدح كل القديم الذي انهار تحت أقدام الحداثة التي تربط بالسياحة ربطا غير منهجي ولكن شعوري (البحث عن مشجب للخيبة أو للاغتراب في الشكل الجديد الذي تصير إليه القبيلة المترحلة) .ويمكن القيام ببحث مضموني في الصور الشعرية / النواح الثقافي لما أنتجه شعراء المنطقة في العشرين سنة الأخيرة لوضع الصورة القائمة في مواجهة الصورة المشتهاة /المرثية .
ان المرثية هي البديل الأجمل لما كان يجب ان يكون وليس كائنا بعد .

5. المؤشر الرابع:المعمار الجديد(من الكنيف إلى قصرية السيراميك) .

يمكن قراءة التغيرات العمرانية في المدينة(القرية) التي كانت مقرا مؤقتا للقبيلة المترحلة و من خلال الرموز العمرانية .تمثال الجمال/المهري والقلل(الماء) والفارس التي حرصت البلدية على وضعها في استقبال السائح ليعرف هوية المكان الصحراوي . ومن خلال أشكال المعمار الحديث كالفيلات المجهزة بوسائل الرفاه العصري بما في ذلك إنهاء وجود الكنيف(بيت راحة تقليدي يمكن من تجميع فضلات الإنسان التي تسمى

الثامون (لما لها من ثمن أو قيمة عالية للاستفادة منها في تغذية النبات بالواحة)
وتعويضه بالمرحاض العصري حيث لم يعد الفرد يجلس على جذع نخلة بل على
السيراميك الملون.

هل تؤثر هذه الممارسات على ثقافة جديدة ؟ نعم ولكن هل نجد لها في دوز علاقة
بالسياحة التي بينت للناس هناك وسائل الرفاه المادي من خلال النزول السياحية؟ أم تفهم
في سياق تطور عمراني حضري عام يشمل كافة مناطق البلاد؟

ان تجميع الاجتماعي إلى الثقافي إلى الحضري تبدو متنافرة بعض الشيء ولكن مجال
التقائها الثقافي ودلالاتها على تغيرات السلوك ليس مثار جدل عندنا . و ما هذه الا بعض
الأسئلة التي يعد البحث بتتبعها في الإبان .